في السابع والعشرين من المحرم بالقصر الابلق وكان ذلك يوما عظيما على الامراء وحضر نائب السلطنة عز الدين أيدمر وكبار الأمراء والدولة فصلوا عليه سرا وجعلوه في تابوت ورفعوه إلى القلعة من السور وجعلوه في بيت من بيوت البحرية إلى أن نقل إلى تربته التي بناها ولده له بعد موته وهي دار العقيقي تجاه العادلية الكبيرة ليلة الجمعة خامس وجب من هذه السنة وكتم موته فلم يعلم جمهور الناس به حتى إذا كان العشر الاخير من ربيع الاول وجاءت البيعة لولده السعيد من مصر فحزن الناس عليه حزنا شديدا وترحموا عليه ترحما كثيرا وجددت البيعة أيضا بدمشق وجاء تقليد النيابة بالشام مجددا إلى عز الدين أيدمر نائبها .

وقد كان الملك الظاهر شهما شجاعا عالي الهمة بعيد الغور مقداما جسورا معتنيا بأمر السلطنة يشفق على الاسلام متحليا بالملك له قصد صالح في نصرة الاسلام واهله وإقامة شعار الملك واستمرت أيامه من يوم الاحد سابع عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين إلى هذا الحين ففتح في هذه المدة فتوحات كثيرة قيسارية وأرسون ويافا والشقيف وإنطاكية وبعراض وطبرية والقصير وحصن الأكراد وحصن عكا والغرين وصافينا وغير ذلك من الحصون المنيعة التي كانت بأيدي الفرنج ولم يدع مع الاسماعيلية شيئا من الحصون وناصف الفرنج على المرقب وبانياس وبلاد انطرسوس وسائر ما بقي بأيديهم من البلاد والحصون وولى في نصيبه مما ناصفهم عليه النواب والعمال وفتح قيسارية من بلاد الروم وأوقع بالروم والمغول على البلستين بأسا لم يسمع بمثله من دهور متطاولة واستعاد من صاحب سيس بلادا كثيرة وجاس خلال ديارهم وحصونهم واسترد من أيدي المتغلبين من المسلمين بعلبك وبصرى وصرخد وحمص وعجلون والصلت وتدمر والرحبة وتل باشر وغيرها والكرك والشوبك وفتح بلاد النوبة بكمالها من بلاد السودان وانتزع بلادا من التتار كثيرة منها شيرزور والبيرة واتسعت مملكته من الفرات إلى أقصى بلاد النوبة وعمر شيئا كثيرا من الحصون والمعاقل والجسور على الانهار الكبار وبنى دار الذهب بقلعة الجبل وبنى قبة على اثني عشر عمودا ملونة مذهبة وصور فيها صور خاصكيته وأشكالهم وحفر أنهارا كثيرةوخلجانات ببلاد مصر منها نهر السرداس وبنى جوامع كثيرة ومساجد عديدة وجدد بناء مسجد رسول ا A حين احترق ووضع الدرابزينات حول الحجرة الشريفة وعمل فيه منبرا وسقفه بالذهب وجدد المارستان بالمدينة وجدد قبر الخليل عليه السلام وزاد في زاويته وما يصرف إلى المقيمين وبنى على المكان المنسوب إلى قبر موسى عليه السلام قبة قبلي أريحا وجدد بالقدس أشياء حسنة من ذلك قبة السلسلة ورمم سقف الصخرة وغيرها وبنى

بالقدس خانا هائلا بما ملا ونقل إليه باب قصر الخلفاء الفاطميين من مصر وعمل فيه طاحونا وفرنا